خطِّيَّة البناء الدلالي في نصوص من نهج البلاغة

أ.د. عبد الكاظم محسن الياسري أ.م.د. ناصر عبد الإله دوش

م.م. زينب ثجيل نعمة

جامعة الكوفة/ كلية التربية للبنات

The linear construction of semantic texts in the Nahij Al-Balaga

Prof.Dr. Abdul Kadhim Mohisn Kadhim
Asst.Prof.Dr. Naser Abadul Elah Dosh
Ass.Lec. Zinab Thajeel Neamah
University of Kufa / College of Education for Girls
aliiwy@yahoo.com 197866ali@gamail.com

Abstract

The study of the construction of semantic linear in the texts of Nahj al-Balajah is a reason to understand the relationship between the construction of the text and its implications by understanding the linearity of the movement of meaning in the texts of the research, in order to reach the effect of that in the meaning behind the walls of the text, the nature of that meaning and its relevance to the structure of the universe; The texts of Nahj al-Balajah are symmetrical in their structure with the elements of the universe involved in framing the meaning of their existence, as well as their deep connection to its qualitative and quantitative existence. The research came to find this out by studying these texts between two oncepts: totality, detail and antibiosis.

key words: The vertical line, the horizontal line, the significance, Nahij Al-Balaga.

الملخص:

تمثل دراسة خطية البناء الدلالي في نصوص نهج البلاغة مدعاة لفهم العلاقة القائمة بين بناء النص ودلالاته وذلك بفهم خطية حركة المعنى في النصوص موضوعة البحث، بغية الوصول إلى أثر ذلك في المعنى المستتب خلف أسوار النص، وطبيعة ذلك المعنى ومدى ارتباطه ببنية الكون؛ إذ إن نصوص نهج البلاغة تتناظر في بنيتها مع جزئيات الكون الضالعة في تأطير معنى وجوده، فضلاً عن ارتباطها العميق بوجوده النوعي والكمي، وقد جاء البحث لاستجلاء ذلك بدراسة هذه النصوص بين مفهومين، هما الإجمال والتفصيل والتضاد.

الكلمات المفتاحية: الخط العمودي، الخط الأفقي، الدلالة، نهج البلاغة.

المقدمة:

امتازت اللسانيات عن سواها من العلوم من حيث الأطر المنهجية والاصطلاحية وغيرها، فهي لم تعد تُعنى بالشكل في بناء النص فحسب، بل تغلغلت في معرفة المعنى الذي ينضوي وراء الشكل المركب منه النص تركيبا متسقا وذلك بتعالق الألفاظ والجمل تعلقا خطيا تراتبيا تعاقبيا بوساطة الأدوات والروابط التي تسهم في نسيج النص وتماسكه لفظيا فضلا عن انسجامه معنويا، فكان هذا البحث الموسوم (خطية البناء الدلالي في نصوص نهج البلاغة) همزة وصل بين اللغة في توالي ألفاظها والأحداث في تعاقبها؛ إذ إن اللغة هي الأداة الفعالة والدقيقة في نقل هذه الأحداث المتعاقبة من نص الواقع إلى ارض النص بشكل سردي يكون الزمن فيه سريعا.

وأرجو أن يضيف البحث شيئاً جديداً مغايراً؛ لأنه يبحث في خطية البناء الدلالي، وأن يكون حافزا لدراسات جديدة في هذا الجانب.

مدخل:

ينطلق البحث من أن البناء الدلالي يأتي نتيجة بنائية للنص نفسه التي تقوم على مجموعة العلاقات الرابطة لمكوناته الجملية، إذ إنها تتجاوز المنظورات الفردية التي تحتفل بالجزئيات وصولا إلى الدلالات الركزة خلف النسيج النصي والكلمة بين تجاويفه. على أن هذه العلاقات الرابطة لمكونات النص تشير إلى اتجاهات الدلالة التي يبتغيها؛ لأن الدلالة هي ((كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى... محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص))[1] ومدى فهمه وإدراكه له، ما يعني أن إنتاج النص لدلالاته يقوم على طبيعة القراءة الواعية التي تمتح فعلها القرائي المنتج من فهمها لتلك العلاقات التي ينتظم النص خلالها، وبناء على ذلك يعدّ الربط بين البنية الشكلية للنص ودلالاته جزءاً مهماً من الأدوات الإجرائية لمعرفة تلك الدلالات التي يقوم النص بإنتاجها. ولا شك في أن معرفة هذه الدلالات يتم عن طريق رصد العلاقات القائمة بين البنيات التركيبية، والأكثر شيوعا في مثل هذه النصوص بما يضمن استمرارية البناء النصي، وارتباطه برباط دلالي متماسك، وهذا يعتمد على مدى فهم القارئ للنص ووعيه وثقافته المستقرة من العالم الخارجي، وفهم كثير ممن رصدوا هذه العلاقات في مختلف الفنون، ولا سيما المفسرون والبلاغيون والأدباء والشعراء وغيرهم، وقد رصد البحث نوعين من العلاقات الدلالية في نصوص نهج البلاغة، الإجمال والتفصيل، والتضاد.

1-الإجمال والتفصيل:

وهي من العلاقات الدلالية التي أشبه ما تكون بالقياس والاستقراء المنطقيين، فالمتكلم يعطي القاعدة العامة، أو الخطوط العريضة عن الموضوع، وهذه العلاقات تتسم بالغموض نوعا ما؛ لأن الإجمال((هو إيراد الكلام على وجه يحتمل أمورا متعددة))[2]، فتحتاج إلى بيان وتوضيح عن طريق القيام بتفصيل جزئيات القاعدة والتمييز بين جزء وآخر؛ ذلك أن ((التفصيل: تعيين بعض المحتملات أو كلها))[3]، أو ((هو التفريق والتمييز بين الشيء والشيء... بإبراز ما يختص بأحدهما))[4]، أو بالعكس يستعرض الجزئيات أو الاحتمالات ثم ينتهي بعبارة مجملة تضم هذه الأجزاء. ويتجلى هذا المظهر الدلالي في ما قاله الإمام **(عليه السلام)** حينما قسَّم الناس على أقسام كلٌّ بحسب سعيه في العبادة والتقرب إلى الله تعالى: ((**شُغِلَ مَنِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ، سَاعٍ سَرِيعٍ نَجَا، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى**))[5].

في النص إشارة إلى المكان النهائي والحتمي الموت، الذي عبَّر عنه مجملا بـ**(شُغِلَ مَنِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ)**، وهذا الإجمال في العبارة احتاج إلى البيان والتفصيل؛ ذلك أن الجنة والنار هي ماثلة أمام جميع الناس، ولكن هناك من يجعلهما شغله الشاغل، فيعمل ساعيا ويطلب راجيا، وهناك من لا يرعي لهما فيغتر هالكا، وعبَّر عن هذا التفصيل بتقسيمه للناس بعد الأنبياء **(عليهم السلام)** على ثلاثة أقسام (الساعي والطالب لله تعالى

والتارك له)، فالطالب يمثل حلقة وصل بين الساعي والتارك؛ وهذا يعني أن الطالب إما أن يكون ساعيا أو لا، والأول إما أن يكون مستثمرا الوقت للعبادة، وعمل الصالحات استثماراً صحيحا وهو الساعي السريع، أو لا وهو الساعي البطيء، والثاني إما أن يكون الطالب مقصرا بقصد أو لا، فالأول الهاوي في النار، والثاني الراجي لرحمة الله تعالى.

وبهذا يكون الرجاء مقرونا بالعلم والعمل، فإذا كان العبد عالما عاملا يسعى لرضا الله في كل آن كان رجاؤه محمودا وعُدّ من السبَّاقين للخير، وإذا كان عالما عاملا بما لا يرضي الله ومع ذلك يرجو الله فرجاؤه من الحمق والغرور والاستهانة بالله **(جل شأنه)**، ويبدو من هذا البناء الجملي، الذي هو أساس البناء الدلالي إيماءة إلى قوى النفس، ذلك أن النفس المهيمنة عليها القوة العاقلة هي النفس المطمئنة الناجية الساعية لرضا الله سعيا حثيثا، والنفس التي تهيمن عليها قوى الشهوة والغضب، هي النفس الأمارة بالسوء

1) معجم التعريفات، الشريف الجرجاني: 91.
2) المصدر نفسه 11.
3) نفسه 11.
4) المعجم الفلسفي 1/ 315.
5) شرح ابن أبي الحديد 173/1.

المقصِّرة في حق خالقها الهاوية في ناره، والنفس التي تتراوح بين القوتين تارة تسعى، وتقصِّر تارة أخرى هي النفس اللوامة الطالبة الراجية رضا الله. وهذا ينم عن الثراء المعرفي الذي تحكمه الغايات، فضلا عن الثراء اللغوي بما يحوي من مفردات أو جزئيات، الذي يضاهي الثراء الكوني بما فيه من قوانين وغايات تحكمه وما يحوي من جزئيات تنتظم على وفق هذه القوانين.

ويلحظ ممّا سبق ذكره الآتي:

-ابتداء البناء التركيبي (ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا) باسم الفاعل الدال على الحدوث والتجدد للسعي وطلب الرجاء، فضلا عن مجيئه وصفاً للذات (العبد) الصادر منها الفعل، ثم وصف الحدث بالصفة المشبهة (سريع، بطيء) الدالة على ثبات الحدث، بمعنى ثبات السعي وطلب الرجاء على الرغم من تفاوتهما في استثمار الزمن لذلك.

- البنية الجملية (ومقصِّر في النار هوى) توحي دلالتها إلى النهاية الحتمية وهي الهويِّ في النار؛ ذلك أن المقصر الزمن عنده معدوم فلا يفكر في استثماره حتى يوصف بالسرعة والبطء.

- الواو الواصلة ومجموعة الأصوات المجوعة التي غلبت على النص تعد وسيلة من وسائل التعبير الفكري المساهمة في نقل معانيه وكشف دلالاته، فضلا عن الجرس الموسيقي الذي أسهم في انسيابية النص وإظهار خطَّيَّته البنائية عن طريق الأحداث والعناصر المكونة لبناء النص، والتي جاءت مرتبة باعتمادها التتابع الخطي الذي يتعلق بتتالي الأحداث على محور الزمن الداخلي[1].

- تفصيل المجمل الموكول في بناء الخطاب دلاليا، بدءاً من النقطة العليا التي هي السعي لرضا الله سبحانه والنجاة من ناره، ثم الحالة الوسطى التي يطلب فيها رجاء الله تعالى ورحمته، إلى النقطة السفلى التي هي نهاية من لم يستجب لما أُمِر به، إنما هو بيان الهدف المتحقق الذي خُلِق لأجله وهي العبادة، التي أشار إليها القرآن، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾**[الذاريات: 56]**، هذه الخطية الدلالية العمودية العميقة المعنى، المستوحاة من خطية البنية التركيبية تشير إلى خطية الفكر العلوي التي تتناغم مع خطية الخلق والنشوء، ذلك أن الكون محكوم بغايات وأهداف متحققة قبل الخلق وبنائه، وأن تكون واحدة من هذه الغايات هي بيان قدرة الخالق في صنعه، وتفعيل العقل البشري لها.

اتصف نهج البلاغة بأنه في الذروة من الفن، حتى أصبح قبلة الكتّاب والبلغاء، ومن هنا ففيه من موارد الدلالة ما نلاحظه في الإجمال والتفصيل بشكل واضح، حينما سُئِل الإمام(**عليه السلام**) عن الإيمان، قال: ((**الإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمِ: الصَّبر، واليَقِين، والعَدل، والجِهَاد. وَالصَّبْر مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ. وَاليَقِينِ مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ: عَلَى تَبصِرَةِ الفِطنَةِ، وَتَأَوُّلِ الحِكمَةِ، وَمَوعِظَةِ العِبرَةِ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ. وَالعَدلِ مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ: عَلَى غَائِصِ الفِهمِ، وَغَورِ العِلمِ، وَزَهرَةِ الحِكَمِ، وَرَسَاخَةِ الحُلُمِ. وَالجِهَادِ مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ: عَلَى الأَمرِ بِالمَعرُوفِ، وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ، وَالصِّدقِ فِي المَوَاطِنِ، وَشَنَآنِ الفَاسِقِينَ**))[2].

ومن النظر في البناء التركيبي والعلاقة الجامعة لأطرافه، أو التي تربط بين متوالياته الجملية بعضها ببعض ربطاً دلالياً فضلاً عن ربطها شكلياً، يتضح أن الربط الدلالي مرهون بالربط الشكلي في بناء النص، ما يعني أن البناء الدلالي للنص يقوم على أساس تلك العلاقات الرابطة بين أجزائه، التي تمد خيوط نسج المعنى في بنيته التحتانية، عن طريق تجسير تلك المعاني والدلالات بشكل خفي تحت ظلال الألفاظ بما يعطي النص بعداً دلالياً، ففي قوله ((**الإِيمَانُ عَلَى أَربَعِ دَعَائِمِ: الصَّبر، اليَقِين، العَدل، الجِهَاد**)) استعمل الإمام(**عليه السلام**) لفظة ((**دعائم**)) التي تفيد معنى خطياً عمودياً تقوم عليه دلالات النص، بوصف تلك الدعائم نقاط ارتكاز تعطي النص أبعاده الضاربة الجذور في أرض الدلالة، وتمنحه اندفاعاً إلى الأعلى، وهنا يتجلى مفهوم الخطية العمودية؛ إذ إن ((بنية الكلمة ترمز إلى كل من المفهوم الذي يتضمن الأشياء بتجريدها من صفاتها العرضية وإلى الأشياء نفسها))[3]، بمعنى أن البناء الدلالي هنا يستغل مقدورات اللفظة وهي منسجمة في سياق كلامي، يتخذ من سياق الخطاب سبيلاً لرصد الدلالة وإظهارها بشكل يفصح عن

1) ظ: نسيج النص 43.
2) شرح ابن أبي الحديد 18 / 267.
3) علم الدلالة، جون لاينز 14.

دلالات السياق الجملي التي تتحدد بناء على تلك العلاقات الرابطة بين مكونات النص، ذلك أن المقام مقام خطاب من سائل للإمام **(عليه السلام)** عن مفهوم (الإيمان)، وهذا يقودنا إلى ضرورة التنبيه إلى المجمل الذي يشكل مركز الثقل في بناء النص **(الإيمان)**، الذي فُصِّل إلى دعائم وركائز يقوم عليها هي **(الصبر، اليقين، العدل، الجهاد)** التي تعد مجملات لتفصيلاتها التي تلتها، وهذا بنفسه يبرز العلاقة الوثيقة –الإجمال والتفصيل– بين المقاطع البنائية الدلالية التي تمكننا من معرفة الكيفية التي بُني عليه النص ومدى انسجامه وتلاحم أجزائه. فلو نظرنا مليّاً في البنية الدلالية للنص وجدنا الآتي:

–إن النص يقوم بالتفريع الخطي أفقياً؛ لينتج دلالاته التي تتجلى مع تراكم جمل النص، ما يعني أن الخطية عمودياً وأفقياً تهيمن على النص، أفقيا فيما بين متفرعاتها، وعموديا فيما بينها وبين جذور مرتكزاتها، وهو بهذا يتحرك ضمن أبعادها الدلالية من أجل استجلاء العلامات أو الرموز التي يشير إليها النص في بنائه الدلالي الذي تنتظم فيه الجمل المكونة للنص.

– حينما ينتهي من تحديد دعائم الإيمان، ينتقل إلى القول **(فَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ..)** فهو يعين مكونات الصبر بأنها **(شعب)**جمع شعبة، ما يعني أن الخطية الأفقية قد أخذ النص مساحته فيها للتعبير عن بنائه الدلالي بغية بيان إمكانية التعاطي معه سلوكياً؛ لأن العلاقة بين اللغة وبين الواقع تقوم على أساس تبادلية الانجاز، الذي يعني أن اللغة موجودة في كل مكان وفي لا مكان في آن واحد[1]، أي بمعنى آخر أن اللغة هي ليست مفردات أو كلمات يمكن نظمها في سياق محدد لتعطي دلالات محددة، بل هي نظام كوني حالها في ذلك حال أي نظام آخر في هذا الكون، بوصفها أن كل شيء في الوجود هو عبارة عن نظام أو مجموعة أنظمة أو منظومات لا يمكن أن ينفرط عقدها أو عقد أي منها، وبناء على ذلك، فهو يبين ماهية أو ثمرة تلك الشعب المكونة للصبر في قوله: **((فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ))**، هذه الماهية أو الثمرة التي تنطوي على أفق منطقي صارم لا يقبل الجدل، بل يجب اتباع ذلك للوصول إلى الهدف المنشود.

وعلى ذلك بقية مكونات النص التي يعددها وهي اليقين والعدل والجهاد؛ إذ إن النص ينتقي اشتراطاته لمكوناته بوصفها تتناغم مع حركة الواقع العملي ولا يمكن أن تفارق حركته التي تنفتح أفقياً في العلاقة مع الآخر، وعمودياً في بناء الذات، ما يجعل حركة الذات تسير على وفق النظام الذي يؤطر الكون كله؛ لأن أي حركة تنفلت عن طريقها الصحيح سيؤثر ذلك في هذا النظام دون المساس به، وهذا يعني إرباكاً لعلاقة الذات مع الخارج المحيط يجعلها تخرج عن إيقاع النظام الكوني الثابت، وهو ما أشار إليه في وصف الجهاد بقوله:**((وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ))** ثم يعقب ذلك الوصف باشتراطات تثبت دقة المنحى الذي يسير فيه النص؛ لكي لا ينفلت النظام أو يخرج عن مساره المرسوم؛ لأن النظام الثابت الذي يتحكم بالأشياء هو تحديد لوظيفة تلك الأشياء، فيقول: **((فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفْرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً))**، إذ إن هذا النص ينطق بنظامه الصارم حينما يحدد نهاية بالجملة **((وعاش في الناس حميداً))** التي تعد استخلاصاً للفكرة التي بني عليها النص.

2– التضاد:

التضاد التخالف وبهذا جاءت معجمات اللغة العربية وقواميسها، ولأبي هلال العسكري (ت 395هـ) رأي في التضاد في قوله: ((كل متضاد مختلف، وليس كل مختلف متضاداً))[2]، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور(ت714هـ) أن التضاد بمعنى المخالفة وضادّ الشيءُ الشيءَ خالفه ليغلبه، ومنها السواد ضد البياض، والموت ضد الحياة[3]، والتضاد هو((أن تجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل))[4]، ويضيف القول في هذا الباب ((والتضاد يكون بين ما يبقى وما لا يبقى))[1]، ومن المنطلق التفاعلي الدلالي لبناء النص

1) ظ: سيميولوجيا اللغة، إميل بينفينست 55.
2) الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري 262.
3) لسان العرب مادة ضدد.
4) التعريفات 55.

يمكن الدخول إلى زاوية من زواياه لتكشف عن هذا المظهر الدلالي الذي يعني((التباين والتقابل التام وضد الشيء وخلافه فالسواد ضد البياض. لذلك قيل أن الضدين لا يجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة، لكن يرتفعان... شرطه أن يكون من جنس واحد))[2]، وبمثابة المرتكز أو النواة التي تنشد إليها بقية دلالات النص ومعانيه التي يتشكل منها محيطه، ما يساعد على تماسك النص وانسجامه، ويسهم أيضاً في بيان الوظائف الجمالية والبرهانية للنص بوصفهما أداة فعالة في جذب المتلقي وإمتاعه وإقناعه[3]، وهناك من عرّف التضاد بأنه ((الصفة التي تطلق على الكلمة التي تناقض الأخرى ولا تقبل التدريج))[4]؛ أي ليس هناك رتب متفاوتة في الشدة والضعف، أو في الكثرة والقلة تستدعي التدريج، وإنما هي اللفظة وضدها تعاقب أحداهما الأخرى، وفي هذا إشارة إلى نوع من التضاد الخطي التعاقبي وهو معنى لا يجتمعان في شيء واحد، وقد ورد هذا المعنى في كثير من خطب أمير المؤمنين **(عليه السلام)**، منها ما ذكر في توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الأضداد؛ لكونه خالق الأضداد، قال:

((ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ، وَالوُضُوحِ بَالبُهمَةِ، وَالجِمُودِ بِالبَلَلِ، وَالحَرُورِ بَالصَّرِدِ، مُؤَلِّفٌ بَينَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُفَارِقٌ بَينَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَينَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَينَ مُتَدَانِيَاتِهَا))[5]

يرتكز التضاد في النص على مكوناته الأساسية التي تذهب في اتجاهات متعددة، لكونها تتعلق بالتكوين الفيزيائي لتلك الأشياء المتضادة أحياناً، فالنور هو الضد النوعي للظلمة؛ لأن دخول الضوء إلى الظلمة يعني نفاذ أشعة الضوء في مكونات الظلمة فتتبدد مادام الضوء موجوداً، أما تضاد الوضوح بالبهمة فهو ينسحب إلى السلوك الاجتماعي، الذي هو جزء من الحياة اليومية في ضوء التعاطي مع الآخر بشكل واضح وعدم التعامل بشيء من الإيهامية، بل إن الفطرة الإلهية هي التي يجب أن تسود في التعامل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات، وفي تضاد **((والجمود بالبلل، والحرور بالصرد))** فإنه يذهب إلى المفهوم الكيماوي من جهة مكونات المتضادات، فالجمود هي عملية كيماوية تقابلها عملية البلولة التي هي كيماوية أيضاً، والحرارة والبرودة كذلك كلاهما عمليتان كيمياويتان، ويظهر أيضا أن للجملة بعداً اجتماعياً من حيث السهولة والصعوبة في السلوك، عن طريق بواعث التضاد في السلوك الاجتماعي تصورها اللغة في بنائها الدلالي نصياً، بوصفها لحظات من الصراع بين الأعراف والمعتقدات، فضلاً عن العلاقة الكونية مع الأشياء الفيزيائية أو الكيماوية؛ كونها تؤطر الحياة البشرية التي تقدم الجمل الأخرى من النص صورة عن كنه تلك الأشياء الكونية، في قوله **(عليه السلام): ((مُؤَلِّفٌ بَينَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُفَارِقٌ بَينَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَينَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرِّقٌ بَينَ مُتَدَانِيَاتِهَا))** فالتأليف بين المتعاديات هو غير المفارقة بين المتباينات، والتباعد هو غير التداني، فهو يناظر بين الألفاظ بما تحمله تلك الألفاظ من دلالات تعطي النص استثماراً عالي المستوى في معانيها، ولعل ذلك التناظر يمكن توضيحه في الخطاطة الآتية التي تبيّن كيف أن المعاني تتضاد دلالياً، وتتقابل خطياً:

مؤلّف النور Xالظلمة مقرّب

الوضوحX البهمة الحرور X الصرد

مفارق الجمودX البلل مفرّق

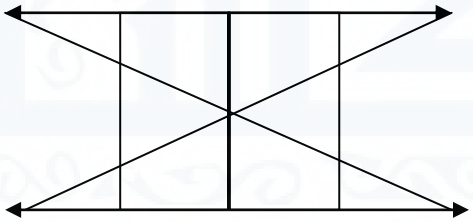

من هنا يتبيّن أن الألفاظ المتضادة الواردة في النص هي ليست قصدية بنفسها، بل هي تحمل القصدية في استنطاق طبيعة البناء الدلالي الذي يكتنف الكون كله، بوصف اللغة إحدى المنظومات الكونية التي تتناغم في مكوناتها مع الكون نفسه.

---

1) الفروق في اللغة 262.
2) المعجم الفلسفي: 1/ 285.
3) ظ: القاموس الموسوعي لعلوم اللسان، د. منذر عياشي: 520.
4) معجم مصطلحات الألسنية: 63.
5) شرح ابن أبي الحديد: 13 / 49.

ويستعمل الإمام(**عليه السلام**) التضاد في موطن آخر؛ ((لتأكيد شمولية المعنى))[1]، وإظهار جماليته عن طريق اجتماع الشيء وضده بقوله:

((وَقَدَّرَ الأَرزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسِّعَةِ، فَعَدَّلَ فِيهَا لِيَبتَلِي مَن أَرَادَ بِمَيسُورِهَا وَمَعسُورِهَا، وَلِيَختَبِر بِذَلِكَ الشُّكرَ وَالصَّبر مِن غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا. ثُمَّ قَرَنَ بِسِعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَبِفُرَجِ أَفرَاحِهَا غُصَصَ أَترَاحِهَا. وَخَلَقَ الآجَالَ فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَوَصَلَ بِالمَوتِ أَسبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لأَشطَانِهَا، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقرَانِهَا))[2]

يعبر التضاد في هذه المقطوعة البنائية عن شبكة من المتقابلات التي تسير في حركة خطية متعاقبة خاضعة لمنظومة كونية غيبية، تُكشف عن طريق السلوك الاجتماعي للبشر، التي تمثلت بالكثرة والقلة في الضيق والسعة، والعسر واليسر، والتقديم والتأخير والطول والقصر في الآجال؛ ذلك أن وجود النوع يقتضي وجود الضد، وقد يكون وجود الضد مكمل أو متمم لوجود النوع، وبهذا ينبني النص على مجموعة من العلاقات الدلالية التي تشكل الروابط غير المنظورة في نسيج النص، وأنه يقوم على شبكة معقدة من العلاقات العابرة لحدود النص، في ضوء توائمها مع الأبعاد الوجودية لماهية الأقدار التي تناولها النص ابتداءً، حينما يذكر تقدير الأرزاق بتفصيل يومئ إلى الخطية العقدية المتصلة من أول الخلق، فتقدير الأرزاق يشير إلى مفهوم كمي ينتظم عبر النص كلامياً، ثم يبدأ التفريع بالدلالات عن طريق استعمال الألفاظ ذات الدلالات المتعددة ((في نسقيها المعرفية من خلال منظومة.... كلية تمسك بخط متوازن ومتواصل من الأحكام))[3]، كما في قوله: **((وقسَّمها على الضيق والسِّعة، فعدَّل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيِّها وفقيرها))**؛ إذ إن الألفاظ (**قسّمها، عدّل، يبتلي، يختبر**) في بنائها المعجمي ربما تتشابه بدلالاتها؛ لكنها هنا تجاوزت ذلك إلى أن تبني منظومة معرفية تعتمد البناء الدلالي المنضبط عقائدياً؛ لكي تؤسس لما بعدها من منظومة جملية تقترف دلالاتها من تراكماتها اللفظية التي سبقها بأداة العطف (ثم) التي تفيد التراخي الزمني، وهو ما ينصرف دلالياً إلى أن ما يرافق هذا التقسيم والتعديل والابتلاء والاختبار الذي بدأ به النص، هو سيحصل على وفق ما سيكون من سلوك واقعي عملي ينتظم ضمن أبعاد الحياة الواقعية الممتدة زمنياً بما يسمى عمر الفرد من جهة تراتبية الأحداث والأفعال، التي تحصل من الفرد نفسه وانعكاسات ذلك عليه في الدنيا وفي الآخرة على حد سواء، وهو ما نصّ عليه النص في مجموعة من الجمل التي اكتمل بها المعنى دلالياً، فقال:**((ثُمَّ قَرَنَ بِسِعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَبِفُرَجِ أَفرَاحِهَا غُصَصَ أَترَاحِهَا))** إذ ركّب من المتناقضات مشهداً ينبض بالدلالات المتضادة؛ لكي تبدو الصورة واضحة بشكل جلي للمتلقي.

ومن هنا تتحدد دلالات الألفاظ التي تنتظم في النص لتفتح نوافذ الفهم البشري في اتجاه خطي واحد؛ ليقوم بوظيفته بوصفه سلسلة لفظية صوتية دلالية اختزلتها الجمل الأخيرة من النص، في قوله: **((وخلق الآجال فأطالها وقصَّرها، وقدَّمها وأخَّرها، ووصل بالموت أسبابها، وجعله خالجا لأشطانها، وقاطعا لمرائر أقرانها))**؛ إذ خلق الآجال يقوم على نوعين لا توازي ولا تعاقب بينهما، فهما كل منهما يخص فرداً بذاته وإن تعددت أمكنة الأفراد لكن الزمن يبقى واحداً فيما يخص الكل، ثم يذهب النص إلى النهاية الحتمية التي يكتمل فيها البناء الدلالي للنص.

خلاصة البحث

استجلى البحث خطية البناء الدلالي في نصوص من نهج البلاغة بوصفها مدعاة لفهم العلاقة القائمة بين بناء النص ودلالاته وذلك بفهم خطية حركة المعنى في النصوص موضوعة البحث، وذلك بدراسة مفهومين هما الإجمال والتفصيل، والتضاد، بغية الوصول إلى أثر ذلك في المعنى المستتب خلف أسوار النص، وطبيعة ذلك المعنى ومدى ارتباطه ببنية الكون؛ إذ إن نصوص نهج البلاغة تتناظر في بنيتها مع جزئيات الكون الضالعة في تأطير معنى وجوده، فضلاً عن ارتباطها العميق بوجوده النوعي والكمي.

1) نظرية علم النص، حسام أحمد فرج 112.
2) شرح ابن أبي الحديد 7 /16.
3) البحث الدلالي عند المعتزلة، علي حاتم الحسن 22.

المصادر والمراجع:

• البحث الدلالي عند المعتزلة، علي حاتم الحسن، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 1999م.

• سيميولوجيا اللغة، إميل بنفينيست، إميل بنفينيست، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة فصول، عدد 3، لسنة 1981.

• شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد؛ تحقيق: محمد ابراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، الأميرة للطباعة، بيروت، ط: 1، 2007م.

• علم الدلالة، جون لاينز، ترجمة: مجيد الماشطة وآخرين، مطبعة جامعة البصرة، ط:1، 1980م.

• الفروق في اللغة، الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري (ت395هـ)، حققه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة النشر، بيروت، ط: 1، 2002م.

• القاموس الموسوعي لعلوم اللسان الجديد لعلوم اللسان، أزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، ترجمة: د. منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، (د. ط)، (د. ت).

• لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (ت 711هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1968م.

• معجم التعريفات، العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت 816هـ)؛ تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، (د.ط)، 2004م.

• المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، الدكتور جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د. ط)، (د.ت).

• معجم المصطلحات الألسنية، الدكتور مبارك مبارك، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط: 1، 1995م.

• نسيج النص (بحث في ما به يكون الملفوظ نصاً)، الأزهر الزنّاد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط: 1، 1993م.

• نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، الدكتور حسام أحمد فرج، تقديم: الأستاذ الدكتور سليمان العطار، الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: 1، 2003م.